سيبـــــاى الـكافلى

آخر نائب للمملكة المصرية بالشام

الأستاذ أحمد رمزى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

كان سيباى من تلك الزمرة الممتازة من الرجال الذين تملأ قلوبهم الدوافع النفسية للعمل والحركة ولا ترضى بغير المعالى والقيادة والسيادة، وكان شجاعاً إلى أقصى حدود الشجاعة لا ترهبه الأخطار، وصريحاً إلى أقصى حدود الصراحة لا يبالى بما تأتى به صراحته من خير أو شر، ما دام فى ذلك إرضاء لنفسه. فكان لا يلين إذا قام عالم من الناس يحاربه أو يؤذيه أو يحط من قدره. ولا يهمه إذا وجد نفسه وحده، يدافع ويناضل عما يقول مادام الحق فى جانبه.

وبهذا وحده يمكن تفسير مواقفه مع النورى ورسائله إليه وصراحته؛ فلولا قوة أخلاقه وجرأته لأظهر ليناً وسياسة وكياسة ولانطوى انطواء الغزالى وخير بك وغيرهما وترك العاصفة تمروا كتفى بفتات الموائد؛ ولكنه كان قوة والقوة تنتصر ولا تلين.

ولم يكن ينقصه شىء من الذكاء والنجابة ليحل المكانة الأولى بين رجال الدولة المصرية. ولو قدر لها وعاشت لكان لبطلنا شأن فيها ولذكر اسمه فى التاريخ بين الخالدين من رجالنا.

ولم تحرمه الدنيا فى السنين التى قضاها فيها من شىء، فقد أوتى من الهيبة والقوة والنفوذ والاحترام والعلم الشىء الكثير، كما ابتلته الأيام فلم يسلم من كيد الناس ودسهم ولا من نكد الدنيا ومقارعة الزمن وكان فى كلتا الحالتين صبوراً:

وقد أجمع المؤرخون على أنه رجل يعد برجال.

* * *

أصل سيباى من رجال قايتباى وأعتقه وجعله من أمراء جند مصر، ثم أخذ يرقى إلى أن تولى وظيفة كافل الممالك الحلبية وهى بدرجة أمير ألف، وذلك فى عهد النورى. وكان الأتابكى قيت[1] الرحبى يوم بويع النورى بالسلطان أمير سلاح، وهو الذى تقدم ومعه الأمير مصرباى وأخذا بيد السلطان بالبيعة وناديا باسمه -وهو يتنع، فبايعه الأمراء والقضاة وغيرهم[2]— فحدثته نفسه بعد حين أن يتسلطن، وكتب إلى نواب مصر بالشام، وإلى سيباى بحلب، فاشتبك الأخير مع نائب القلعة وحاصره وقاتله فاحترقت بسبب الحصار المدرسة الظاهرية الشهيرة بالسلطانية وقتئذ، فنذر سيباى أن يبنى مدرسة مثلها. وقدر بعده وبنى جامعه الذى زرناه. فى إبان هذه الفتنة تغير قلب النورى من جهة سيباى فعزله ثم عاد فضمه إليه وأنعم عليه بأمرة السلاح بالقاهرة.

وفى شوال ٩١١ عين سيباى ثانياً بالشام، وكان النورى فى نفسه أشياء منه؛ فهو يعلم بأنه بطل من أبطال الحروب لا يخطر الموت على باله، علاوة على أنه من أشجع فرسان مصر وأنجبهم

اللاويون قفوا فى مصاطبكم. أيها الاسرائيليون خذوا مواقعكم»[1]

وهذه الفقرات هى فقرات خاصة بطبقة كما ترى.

وأما قضية «التبويق» فقد رأيت أن النبى (ص) كرهها كما كره استعمال الناقوس. وليس هنالك بين الأذان وبين التبويق أى وجه من أوجه الشبه، اللهم إلا الفكرة والفكرة عامة فى جميع الأديان.

يقول المستشرق ميتوخ: «يظهر من عبارة وردت فى كتاب المقريزى[2] أن الأذان إنما كان تنبيها للرسول عليه السلام وإخباره بحلول وقت صلاة الجماعة، كما كان تنبيهاً لخلفائه من بعده بحلول وقت الصلاة[3]. وقد نبه إلى هذه الفكرة المستشرق بيكر أيضا. وأما الإقامة فأنها علامة لبدء الصلاة أو مقدمة قصيرة للصلاة[4].

مراد على

---

(١) راجع التلمود (تايد) عن هذه العادات . The Priesthood. P, 207. School and Synagogue. uol 2 P, 44 Life under the Law Vol 2 P, 96 .

(٢) mittwoch P 2, 1 الخطط ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) mittwoch. P ,45

(٤) mittwoch. P, 25 من الأذان فى كتب الفقه الخطة mischeat mosabih — ul — masabip Vol 1 P, 141 دائرة المعارف .

---

(١) كان قيت الرحبى فى حملة الأمير أزبك الأتابكى ضد العثمانيين سنة ٩٠١ هجرية فى عهد قايتباى وبايزيد وهو الذى حمل أخبار انتصار الجيش المصرى وجاء بالأعلام التى أخذت ودخل بها القاهرة وسط أفراح الشعب.

(٢) ابن إياس طبعة استامبول حوادث ٩٠٦ هجرية

ومن ذوى العزم الشديد[1] ولكنه كان يتخوف منه ويخشاه ولذلك رسم له أن يتوجه إلى دار الأمير أزدمير الداودار وأن يقابله هناك أمير المؤمنين الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة وبعض الأمراء ، فإذا انعقد المجلس أخذوا عليه المواثيق والأيمان بالطاعة لسلطانه ؛ وقد تم ذلك . ثم لبس الخلعة وخرج بموكب من القاهرة وهو يحمل التقليد بنيابة دمشق .

ويرجع ذلك الشك لأمرين ماسبق من تحالف سيباى وانضمامه لحركة قيت الرجبى المطالب بالعرش ، وبما اتصل إلى علم الغورى من بعض المنجمين من أن الذى يلى الحكم بعد الغورى يبدأ اسمه بحرف السين . فأخذها السلطان على سيباى وتطير من اسمه ، وأصبح لا يأمنه ولا يصغى لنصائحه ولا يأخذ بأقواله .

* * *

ولما تولى سيباى النيابة عن مصر بالشام واطلع بالأمور حتى علم بما بين خير بك نائب مصر بحلب والسلطان سليم العثمانى من اتصالات مكتومة وبالمكاتبة ، فأبلغ الخبر فوراً إلى بلاط القاهرة ؛ ولكن الغورى لم يأخذ الأمر جدّياً بل اعتمد على قوة المصريين فى الحروب وثقته بماسبق أن أبدوه من البسالة فى حروبهم أيام قايتباى وانتصاراتهم المتتالية بقيادة (أمير الجيوش) أوزبك أتابك العساكر المصرية . ثم لعدم ارتياحه لكل مايأتى من حامل حرف السين . وأخيراً لأن خير بك نائب حلب وسيباى كان يشغل هذا المنصب قبله ولا بد أن بين الأميرين أشياء .

ولم يكن ذلك من المصلحة لأن التغاضى عن نائب حلب جرّأ الغزالى نائب حماه الذى قلّد زميله فى الشمال ولم يحدث طول تاريخ مصر أن تجرّأ العمال والنواب على الاتصال بالأعداء كما حدث فى تلك الأيام ، بل يذكرنا التاريخ بعض الأمراء الذين حاولوا شيئاً من ذلك فعوقبوا بما يستحقون .

* * *

وقد ظهر علمه وفضله أيام نيابته بالشام ، فكان يجمع العلماء عنده فى كل ليلة جمعة يتذاكرون بين يديه فى أنواع العلوم والفقه وأعدّ لهم سماطاً كبيراً . ولما توترت العلائق مع العثمانيين كان من رأيه ألا يخرج السلطان من مصر ، بل يبقى بها يمد الجيوش وهو فى مأمنه حتى لا تتعرض البلاد للأخطار . وفى سبيل ذلك تحمل الكثير ، وجاءت النتائج محققة لظنه مؤكدة حسن فراسته وبعد نظره ، ولو أخذ برأيه لما وقعت الكارثة ولما زالت عظمة مصر والشام من التاريخ

وقد ذكر ابن إياس وغيره شيئاً من ذلك فقال إنه بعث إلى الغورى برسالة جاء فيها : « يامولانا السلطان ، إن الغلاء شديد بالبلاد الشامية وفيها نقص العليق والتبن ، والزرع فى الأرض لم يحصد ، وليس ثمة عدو متحرك فلا يترك السلطان سره ولا يسافر ، وإن كان ثمة عدو فنحن له كفاية » فلم يلتفت السلطان لكلامه واستمر على رأيه

ولم تكن القاهرة مرتاحة لخروج السلطان ، فأخذوا يعيبون عليه أنه خالف ما اعتاد عليه الملوك السابقون فى أشياء كثيرة من ترتيب الجيوش وجمعها . وأخيراً قالوا إنهم كانوا يخرجون فى فصل الربيع والوقت رطب . أما الغورى فقرر سفره فى فصل الصيف والجو فى شدة حرارته . ثم أذاعوا أن الملوك إذا ذهبوا للجهاد كانوا يخرجون من الجهات النائية ولا تشعر القاهرة بمواكبهم إلا فى عودتهم من ميادين القتال . وقد خالفهم الغورى فى ذلك فشق العاصمة بموكبه عند سفره[1] .

ولكن السلطان لم يكن ليلتفت لشىء من ذلك بل بقى متمسكا برأيه فى جميع الأمور ونفذ ما يريد .

* * *

وتحرك ركاب آخر سلاطين مصر والشام ومعه الجيوش المصرية فى يوم الجمعة ٢٠ ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ قاصداً الشام عن طريق الريدانية فسرياقوس ثم الصالحية فقطيا إلى غزة التى أقام بها ثلاثة أيام .

ويقول المحلى : « ولما كان السلطان فى غزة وردت إليه مكاتبة من الأمير سيباى يذكر فيها[2] : الذى يعرضه المملوك على المسامع العالية أعلاها الله تعالى وأدامها أن العبد سمع بأن السلطان يريد السفر لقتال ابن عثمان ، وأن المملوك يقوم بهذا الأمر ويكون السلطان مقيما بمصر ويمد المملوك بالعساكر المنصورة . والذى يعلم به مولانا السلطان أن خير بك ملاحى غلينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين » فرد عليه الغورى ها نحن قد جئنا كم بأنفسنا . ثم أمر برحيل الجيوش والعساكر وهم يموجون كالبحر الزاخر .

* * *

فى يوم الإثنين ١٨ جمادى الأولى سنة ٩٢٢ استقبلت دمشق

(١) أحمد بن حنبل

(١) نجد تفاصيل خروج الغورى فى ابن اياس

(٢) عن تاريخ حلب للطباخ

العاصمة الثانية الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري ، وقد حفظ لنا التاريخ وصف ذلك اليوم الخالد فقالوا : إن موكبه دخل من باب النصر وشق المدينة وخرج منها إلى ناحية القابون العليا ، حيث كان معسكر الجيش وأقام تسعة أيام بمصطبة السلطان . ولم يتفق مثل موكبه لسلطان من سلاطين مصر بعد الأشرف برسباى سنة ٨٢٦ هجرية فدقت البشائر بقلعة دمشق — وكانت عامرة — وزينت المدينة أجمل زينة وفرشت شقق الحرير تحت أرجل خيله ابتداء من جامع سيباى ، ويذكر ابن إياس أن قنصل الفرنجة بدمشق وتجارهم اشتركوا مع الأهلين فى الترحيب بملك مصر وتنروادنانير الذهب عليه وجاء رئيس دار الضرب بدمشق المحروسة للعلم صدقة الإسرائيلى ، فنثر نقوداً من الفضة جديدة ضربت لهذه المناسبة السعيدة

وكان سيباى قد خف إلى ناحية سمسم[1] على طريق مصر ، وقيل إلى طبرية لاستقبال الغورى ، ولما دخل دمشق كان بجوار السلطان يحمل له القبة والجلالة ، كما جرت بذلك المراسم المعتادة للملوك المصريين

وسار الغورى إلى حلب ومعه سيباى وأمراء الشام ، وهناك تجمعت جيوش ممالك مصر والشام وحلب استعداداً ليوم مرج دابق — وليس هنا موضع درسه ولا بحثه — وإنما نذكر حادثة وقعت هناك إن دلت على شىء فهو جرأة سيباى وصراحته المتناهية ، وهى أن والى عينتاب[2] ، وكانت من أعمال مصر ، انضم إلى العثمانية ، فلما رأى أهبة المصريين ندم على ما فعله ، وجاء إلى السلطان منضما إليه تائباً ، فلم يجز عليه حيلته ، وأعدم لتسليمه المدينة ، وكان ذلك بحضور الأمراء والنواب والأعيان ، فقام من بينهم سيباى وقبض على خير بك نائب حلب وجره بين يدى الغورى وقال : « يامولانا السلطان إن أردت أن ينصرك الله على عدوك فاقتل هذا الخائن » فقام الغزالى وقال « يامولانا لا تفتن العسكر ونبدأ فى قتال بعضنا بعضاً : وتذهب أخبارنا إلى عدونا ويزداد طمعه فينا وتضعف شوكتنا والرأى لكم ! »

والتفت السلطان نحوهم وطلب إليهم « بأن يتحالفوا ثانياً ، وألا يخون منهم أحد ، والخائن يخونه الله تعالى وعليه لعنة الله » ثم أمر بأن ينادى بالرحيل ، وتحركت القوى إلى حيث تلتقى جموع العثمانيين فى شمالى حلب على بعد ثلاثين كيلومتراً فى وسط سهل مرج دابق ليوم من أيام مصر السود ، وهو يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ ، وهناك كان مثوى ملك الأمراء سيباى آخر من حكم دمشق باسم مصر

* * *

فى يوم شديد الحر وقد انعقد الغبار حتى صار لا يرى القاتلون بعضهم بعضاً خطت الأقدار حكماً ضد مصر وجندها فخسروا المعركة بعد يوم لعبت فيه البطولة والخيانة وعظمة النفس مع الكيد وسوء الظن معاً ، وكان على رأس جند الشام سيباى فى ميمنة الجيش يقاتل قتال المستميت ، ويصادم مع أمراء مصر لكسب معركة خاسرة . قال المحبى : « ولكنهم مع قلتهم أوقفوا هذا الجيش العظيم ولم يقدر أحد منهم أن يتقدم » . وفى مواجهة العدو وتحت لأمة الحرب سقط أمير الأمراء سيباى الكافل مع من استشهد فى وطيس ذلك النهار

ماذا كان من أثر ذلك اليوم ؟ كان أن أصبحت مصر العظيمة[1] تحت الجزية بعد أن أمضت القرون تفرض الجزية على غيرها

وفى حارة من حارات دمشق على رأس شباك من زاوية يطلق عليها اسم زاوية السلطان عمر بن عبد العزيز أبقى الزمن هذا المرسوم بالخط النسخ المملوكى منقوشاً على الحجر

« مما رسم بالأمر الكريم العالى المولوى السيفى سيباى مولانا ملك الأمراء كافل الشام المحروسة أعز الله أنصاره بأبطال المظلمة المحدثة على حارة القنوات بسبب واقع فى النهر وبأبطال الجبايات والحماية وشيخ الحارة » . تلك تحية من الزمن لمصر الخالدة !

* * *

أين عظامه ؟ أين تراثه ؟ أين الأوقاف التى أرصدها على مدرسته بدمشق ؟ أين آثاره بحلب ؟ كل ذلك ذهب مع الريح !

لا لم يذهب شىء ، إن سيباى وغيره باقون مع الزمن ، لأن الدروس التى تلقاها من الموت والهزيمة أقوى وأشد وقعاً من دروس النصر والغلبة ، وراحة البال والطمأنينة .

احمد رمزى

الفنصل العام السابق لمصر بسورية ولبنان

(حاشية) : سقطت كلمة الأستاذ لمام كرد على ، وهو العالم الكبير ذى الفضل العظيم فى العدد السابق .

(١) اسمها الحالى غازى عينتاب وهى داخل الأراضى التركية التى كان جزء كبير منها داخل أراضى المصرية أيام الغورى .

(٢) بلدة على الطريق .

(١) هكذا ورد رثاء أورشليم فى العهد العتيق .